سورة الذاريات

١ـ **تسمى هذه السورة (والذاريات)** بإثبات الواو تسمية لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أولها.

وبهذا عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، وابن عطية في تفسيره والكواشي في تلخيص التفسير والقرطبي.

وتسمى ـأيضاًـ (سورة الذاريات) بدون الواو اقتصاراً على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن.

وكذلك عنونها الترمذي في جامعه وجمهور المفسرين.

وكذلك هي في المصاحف التي وقفنا عليها من مشرقية ومغربية قديمة.

ووجه التسمية أن هذه الكلمة لم تقع بهذه الصيغة في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت السورة السادسة والستين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.

نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

واتفق أهل عد الآيات على أن آيها ستون آية. ٣٣٥/٢٦

٢ـ **أغراض هذه السورة:** احتوت على تحقيقِ وقوع البعث والجزاء.

وإبطالِ مزاعمِ المكذبين به وبرسالةِ محمد ﷺ ورمْيِهِمْ بأنهم يقولون بغير تَثَبُّت.

ووعيدِهم بعذاب يفتنهم.

وَوَعْدِ المؤمنين بنعيم الخلد، وذِكْرِ ما استحقوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان.

ثم الاستدلال على وحدانية الله، والاستدلال على إمكان البعث، وعلى أنه واقعٌ لا محالةَ بما في بعض المخلوقات التي يشاهدونها، ويحسون بها دالة على سعة قدرة الله -تعالى- وحكمته على ما هو أعظمُ من إعادة خلق الإنسان بعد فنائه، وعلى أنه لم يخلق إلا لجزائه.

والتعريضِ بالإنذارِ بما حاق بالأمم التي كذبت رسل الله، وبيانِ الشبهِ التام بينهم وبين أولئك.

وتلقينِ هؤلاء المكذبين الرجوعَ إلى الله، وتصديقَ النبي ﷺ ونبذَ الشرك.

ومعذرةِ الرسول ﷺ مِنْ تَبِعَةِ إعراضهم، والتسجيلِ عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق.

ووعيدِهم على ذلك بمثل ما حلَّ بأمثالهم. ٢٦/٣٣٥-٣٣٦

سورة الطور

١ ـ **سميت هذه السورة عند السلف** (سورة الطور) دون واو قبل الطور.

ففي جامع الطواف من الموطأ حديث مالك عن أم سلمة قالت: فَطُفْتُ ورسول الله إلى جنب البيت يقرأ بـ: ﴿الطُّورِ وكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾.

أي يقرأ بسورة الطور ولم ترد يقرأ بالآية لأن الآية فيها: ﴿والطُّور﴾ بالواو وهي لم تذكر الواو.

وفي باب القراءة في المغرب من الموطأ حديث مالك عن جبير بن مطعم قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ بالطور في المغرب».

وفي تفسير سورة الطور من صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير».

وكان جبير بن مطعم مشركاً قدم على النبي ﷺ في فداء أسرى بدر وأسلم يومئذ.

وكذلك وقعت تسميتها في ترجمتها من جامع الترمذي وفي المصاحف التي رأيناها، وكثير من التفاسير.

وهذا على التسمية بالإضافة، أي سورة ذكر الطور كما يقال: سورة البقرة، وسورة الهدهد، وسورة المؤمنين.

وفي ترجمة هذه السورة من تفسير صحيح البخاري (سورة والطور) بالواو

على حكاية اللفظ الواقع في أولها كما يقال: (سورة قل هو الله أحد).

وهي مكية جميعها بالاتفاق.

وهي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة نوح وقبل سورة المؤمنين.

وعد أهل المدينة ومكة آيها سبعاً وأربعين، وعدها أهل الشام وأهل الكوفة تسعاً وأربعين، وعدها أهل البصرة ثمانياً وأربعين. ٢٧/٣٥-٣٦

٢- **أغراض هذه السورة:** أولُ أغراضِ هذه السورةِ التهديدُ بتحقيقِ وقوعِ العذاب يوم القيامة للمشركين المكذبين بالنبي ﷺ فيما جاء به من إثبات البعث وبالقرآن المتضمن ذلك فقالوا: هو سحر.

ومقابَلَةُ وعيدِهم بَوعْدِ المتقين المؤمنين، وصفةِ نعيمهم، ووصفِ تَذكُّرهم؛ خشيةً، وثنائهم على الله بما مَنَّ عليهم، فانتقل إلى تسلية النبيﷺ وإبطال أقوالهم فيه وانتظارهم موتَه.

وتحديهم بأنهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن.

وإبطالُ خليطٍ مِنْ تكاذيبهم بإعادة الخلق، وببعثه رسولٍ ليس من كبرائهم، وبكون الملائكة بناتِ الله، وإبطالُ تعدُّدِ الآلهة، وذكرُ استهزائهم بالوعيد.

وأمرُ النبيﷺ بتركهم، وأن لا يحزن لذلك؛ فإن الوعيدَ حالٌّ بهم في الدنيا ثم في الآخرة، وأمرُه بالصبر، ووعدُه بالتأييد، وأمرُه بشكر ربه في جميع الأوقات. ٢٧/٣٦

سورة النجم

١ـ **سميت (سورة النجم)** بغير واو في عهد أصحاب النبيﷺ ففي الصحيح عن ابن مسعود: «أن النبيﷺ قرأ سورة النجم فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلا سجد فأخذ رجل كفاً من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه.

وقال: يكفيني هذا، قال عبدالله: فلقد رأيته بعدُ قُتِل كافراً، وهذا الرجل أمية بن خلف.

وعن ابن عباس أن النبيﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون.

فهذه تسمية؛ لأنها ذكر فيها النجم.

وسموها سورة (والنجم) بواو بحكاية لفظ القرآن الواقع في أوله وكذلك ترجمها البخاري في التفسير، والترمذي في جامعه.

ووقعت في المصاحف والتفاسير بالوجهين، وهو من تسمية السورة بلفظ وقع في أولها وهو لفظ (النَّجْمِ) أو حكاية لفظ (وَالنَّجْمِ).

وسموها (والنجم إذا هوى) كما في حديث زيد بن ثابت في الصحيحين: «أن النبيﷺ قرأ: والنجم إذا هوى فلم يسجد» أي في زمن آخر غير الوقت الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس.

وهذا كله اسم واحد متوسع فيه؛ فلا تُعَدُّ هذه السورة بين السور ذوات أكثر من اسم.

وهي مكية، قال ابن عطية: بإجماع المتأولين.

وعن ابن عباس وقتادة: استثناء قوله ـتعالى ـ: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ

وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ الآية قالا : هي آية مدنية ، وسنده ضعيف.

وقيل : السورة كلها مدنية ونسب إلى الحسن البصري : أن السورة كلها مدنية ، وهو شذوذ.

وعن ابن مسعود هي أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة.

وهي السورة الثالثة والعشرون في عد ترتيب السور ، نزلت بعد سورة الإخلاص وقبل سورة عبس.

وعد جمهور العادين آيها إحدى وستين ، وعدها أهل الكوفة اثنتين وستين.

قال ابن عطية : سبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمداً يتقول القرآن ، ويختلق أقواله ، فنزلت السورة في ذلك. ٢٧/٨٧ـ٨٨

٢ـ **أغراض هذه السورة :** أولُ أغراضها تحقيقُ أن الرسولَ ﷺ صادقٌ فيما يبلِّغه عن الله ـتعالى ـ وأنه منزهٌ عما ادعوه.

وإثباتُ أن القرآنَ وحيٌ من عند الله بواسطة جبريل.

وتقريبُ صفةِ نزولِ جبريلَ بالوحي في حالين زيادةً في تقريرِ أنه وحيٌ من الله واقعٌ لا محالة.

وإبطالُ إلهيةِ أصنام المشركين ، وإبطالُ قولِهم في اللات والعزى ومناة بنات الله ، وأنها أوهامٌ لا حقائقَ لها ، وتنظيرُ قولِهم فيها بقولهم في الملائكة أنهم إناثٌ.

وذكرُ جزاءِ المُعرضين والمهتدين ، وتحذيرُهم من القول في هذه الأمور بالظن دون حجة.

وإبطالُ قياسهم عالمَ الغيبِ على عالم الشهادة ، وأن ذلك ضلالٌ في الرأي قد

جاءهم بضده الهدى من الله.

وذُكِرَ لذلك مثالٌ مِنْ قصة الوليد بن المغيرة، أو قصة ابن أبي سرح.

وإثباتُ البعث والجزاء.

وتذكيرُهم بما حلَّ بالأمم ذاتِ الشرك مِنْ قَبْلِهم، وبمن جاء قبل محمدﷺ من الرسلِ أهلِ الشرائع.

وإنذارُهم بحادثة تَحُلُّ بهم قريباً.

وما تخلل ذلك من مُعْتَرِضَات ومُسْتَطْردات لمناسبات ذكرهم عن أن يتركوا أنفسهم[1]، وأن القرآن حوى كتب الأنبياء السابقين. ٢٧/٨٨-٨٩

٣- **واستثناء اللمم استثناء منقطع**؛ لأن اللمم ليس من كبائر الإثم، ولا من الفواحش.

فالاستثناء بمعنى الاستدراك.

ووجهه أن ما سمي باللمم ضرب من المعاصي المحذر منها في الدين، فقد يظن الناس أن النهي عنها يلحقها بكبائر الإثم؛ فلذلك حق الاستدراك، وفائدة هذا الاستدراك عامة وخاصة: أما العامة فلكي لا يعامل المسلمون مرتكب شيء منها معاملة من يرتكب الكبائر، وأما الخاصة فرحمة بالمسلمين الذين قد يرتكبونها؛ فلا يفُل ارتكابها من نشاط طاعة المسلم، ولينصرف اهتمامه إلى تجنب الكبائر.

فهذا الاستدراك بشارة لهم، وليس المعنى أن الله رخص في إتيان اللمم.

وقد أخطأ وضَّاح اليَمن في قوله الناشيء عن سوء فهمه في كتاب الله وتطفله

---

١ - هكذا في الأصل، ولعل فيه خطأً مطبعيًّا، ولعل الصواب: ولمناسبات ذكَّرهم فيها أن يزكوا أنفسهم. (م)

في غير صناعته:

فما نوَّلَتْ حتى تضرعتُ عندها وأنبأتُها ما رَخَّص الله في اللَّمم

واللمم: الفعل الحرام الذي هو دون الكبائر والفواحش في تشديد التحريم، وهو ما يندر ترك الناس له؛ فيكتفى منهم بعدم الإكثار من ارتكابه.

وهذا النوع يسميه علماء الشريعة الصغائر في مقابلة تسمية النوع الآخر بالكبائر. ٢٧/١٢١ـ١٢٢

٤ـ وسامدون: من السمود وهو ما في المرء من الإعجاب بالنفس، يقال: سمد البعير، إذا رفع رأسه في سيره، مُثِّل به حالُ المتكبر المعرض عن النصح المعجب بما هو فيه بحال البعير في نشاطه.

وقيل السمود: الغِناء بلغة حِمْير، والمعنى: فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة الاكتراث بما تسمعون من القرآن كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ على أحد تفسيرين. ٢٧/١٦٠

سورة القمر

١ ـ اسمها بين السلف (سورة اقتربت الساعة).

ففي حديث أبي واقد الليثي: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الفطر والأضحى»، وبهذا الاسم عنون لها البخاري في كتاب التفسير.

وتسمى (سورة القمر) وبذلك ترجمها الترمذي.

وتسمى (سورة اقتربت) حكاية لأول كلمة فيها.

وهي مكية كلها عند الجمهور، وعن مقاتل: أنه استثنى منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَرُّ﴾ قال: «نزل يوم بدر» ولعل ذلك من أن النبي ﷺ تلا هذه الآية يوم بدر.

وهي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة (الطارق) وقبل سورة (ص).

وعدد آيها خمس وخمسون باتفاق أهل العدد.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾».

وفي أسباب النزول للواحدي بسنده إلى عبدالله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد محمد ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة سحركم، فسألوا السُّفَّار، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ الآيات.

وكان نزولها في حدود سنة خمس قبل الهجرة ففي الصحيح: «أن عائشة قالت: أُنزل على محمد بمكة، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾».

وكانت عُقد عليها في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي في أواخر سنة أربع قبل الهجرة بمكة، وعائشة يومئذ بنت ست سنين، وذكر بعض المفسرين أن انشقاق القمر كان سنة خمس قبل الهجرة.

وعن ابن عباس كان بين نزول آية: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وبين بدر سبع سنين. ٢٧/١٦٥ـ١٦٦

٢ـ **أغراض هذه السورة:** تسجيلُ مكابرةِ المشركين في الآيات البينة، وأمرُ النبيﷺ بالإعراض عن مكابرتهم.

وإنذارُهم باقتراب القيامة، وبما يلقونه حين البعث من الشدائد.

وتذكيرُهم بما لَقِيَتْهُ الأممُ أمثالُهم من عذاب الدنيا؛ لتكذيبهم رسلَ الله، وأنهم سيلقون مثلَ ما لقي أولئك؛ إذ ليسوا خيراً من كفار الأمم الماضية.

وإنذارُهم بقتال يُهزمون فيه، ثم لهم عذابُ الآخرة وهو أشد.

وإعلامُهم بإحاطة الله علماً بأفعالهم، وأنه مجازيهم شرَّ الجزاء، ومجازِ المتقين خير الجزاء، وإثباتُ البعث، وَوَصْفُ بعض أحواله.

وفي خلال ذلك تكريرُ التنويهِ بهدي القرآن وحكمته. ٢٧/١٦٦

٣ـ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾.

واعلم أن الآية صريحة في أن كل ما خلقه الله كان بضبط جارياً على حكمته، وأما تعيين ما خلقه الله مما ليس مخلوقاً له من أفعال العبادة مثلاً عند القائلين بخلق

العباد أفعالهم كالمعتزلة أوالقائلين بكسب العبد كالأشعرية، فلا حجة بالآية عليهم لاحتمال أن يكون مصبُّ الإخبار هو مضمون ﴿خَلَقْنَاه﴾ أو مضمون ﴿بِقَدَر﴾ ولاحتمال عموم ﴿كُلَّ شَيء﴾ للتخصيص، ولاحتمال المراد بالشيء ما هو، وليس نفي حجية هذه الآية على إثبات القدر الذي هو محل النزاع بين الناس بمبطل ثبوت القدر من أدلة أخرى.

وحقيقة القدر الاصطلاحي خَفِيَّة؛ فإن مقدار تأثر الكائنات بتصرفات الله -تعالى- وبتسبب أسبابها ونهوض موانعها لم يبلغ علم الإنسان إلى كشف غوامضه ومعرفة ما مكّن الله الإنسان من تنفيذ لما قدّره الله، والأدلة الشرعية والعقلية تقتضي أن الأعمال الصالحة والأعمال السيئة سواء في التأثر لإرادة الله -تعالى- وتعلق قدرته إذا تعلقت بشيء، فليست نسبة آثار الخير إلى الله دون نسبة أثر الشر إليه إلا أدباً مع الخالق لقنه الله عبيده، ولولا أنها منسوبة في التأثر لإرادة الله -تعالى- لكانت التفرقة بين أفعال الخير وأفعال الشر في النسبة إلى الله ملحقة باعتقاد المجوس بأنّ للخير إلهاً وللشر إلهاً، وذلك باطل لقول النبي ﷺ: «**وتؤمنوا بالقدر خيره وشره** » وقوله: «**القدرية مجوس هذه الأمة**» رواه أبو داود بسنده إلى ابن عمر مرفوعاً. ٢٧/٢١٨-٢١٩

سورة الرحمن

١ ـ **وردت تسميتها بسورة (الرحمن)** في أحاديث منها ما رواه الترمذي عن جابر بن عبدالله قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ سورة الرحمن» الحديث.

وفي تفسير القرطبي أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبي ﷺ: «اتلُ عليَّ ما أُنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أعدها، فأعادها ثلاثاً، فقال: إن له لحلاوة» الخ.

وكذلك سميت في كتب السنة وفي المصاحف.

وذكر في الإتقان: أنها تسمى (عروس القرآن) لما رواه البيهقي في شعب الإيمان عن علي أن النبي ﷺ قال: «**لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن**».

وهذا لا يعدوا أن يكون ثناءً على هذه السورة، وليس هو من التسمية في شيء كما رُوي أن سورة البقرة فسطاطا القرآن[1].

ووجه تسمية هذه السورة بسورة الرحمن أنها ابتدئت باسمه ـتعالى ـ ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾.

١ـ الظاهر أن معنى: لكل شيء عروس، أي لكل جنس أو نوع واحد من جنسه يزينه تقول العرب: عرائس الإبل لكرائمها؛ فإن العروس تكون مُكَرَّمة مزينة مرعية من جمع الأهل بالخدمة والكرامة، ووصف سورة الرحمن بالعروس تشبيه ما تحتوي عليه من ذكر الحبرة والنعيم في الجنة بالعروس في المسرة والبذخ، تشبيه معقول بمحسوس، ومن أمثال العرب، لا عطر بعد عروس (على أحد تفسيرين للمثل) أو تشبيه ما كثر فيها من تكرير ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ بما يكثر على العروس من الحلي في كل ما تلبسه.

وقد قيل: إن سبب نزولها قول المشركين المحكي في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ في سورة الفرقان، فتكون تسميتها باعتبار إضافة (سورة) إلى (الرحمن) على معنى إثبات وصف الرحمن.

وهي مكية في قول جمهور الصحابة والتابعين، وروى جماعة عن ابن عباس: أنها مدنية نزلت في صلح القضية عندما أَبى سهيل بن عمرو أن يكتب في رسم الصلح (بسم الله الرحمن الرحيم).

ونسب إلى ابن مسعود ـأيضاًـ أنها مدنية.

وعن ابن عباس: أنها مكية سوى آية منها هي قوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

والأصح أنها مكية كلها وهي في مصحف ابن مسعود أول المفصل.

وإذا صح أن سبب نزولها قول المشركين: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ تكون نزلت بعد سورة الفرقان.

وقيل: سبب نزولها قول المشركين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ المحكي في سورة النحل، فرد الله عليهم بأن الرحمن هو الذي علم النبي ﷺ القرآن.

وهي من أول السور نزولاً فقد أخرج أحمد في مسنده بسند جيد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون يقرأ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

وهذا يقتضي أنها نزلت قبل سورة الحجر.

وللاختلاف فيها لم تحقق رتبتها في عداد نزول سور القرآن.

وعدها الجعبري ثامنة وتسعين بناءً على قول بأنها مدنية وجعلها بعد سورة

الرعد وقبل سورة الإنسان.

وإذْ كان الأصح أنها مكية، وأنها نزلت قبل سورة الحج، وقبل سورة النحل، وبعد سورة الفرقان ـ فالوجه أن تعد ثالثة وأربعين بعد سورة الفرقان، وقبل سورة فاطر.

وعد أهل المدينة ومكة آيها سبعاً وسبعين، وأهل الشام والكوفة ثمانا وسبعين؛ لأنهم عدوا الرحمن آية، وأهل البصرة ستاً وسبعين. ٢٧/٢٢٧ـ٢٢٨

٢ـ **أغراض هذه السورة**: ابتدئت بالتنويه بالقرآن قال في الكشاف: «أراد الله أن يقدم في عدد آلائه أول شيء ما هو أسبق قِدَماً من ضروب آلائه، وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين؛ فقدم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها، وأقصى مراقبها، وهو إنعامه بالقرآن، وتنزيله، وتعليمه، وأَخَّر ذكر خلق الإنسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان» اهـ.

وتبع ذلك من التنويه بالنبي ﷺ بأن اللهَ هو الذي علمه القرآن؛ رداً على مزاعم المشركين الذين يقولون ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ورداً على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين، أو أنه سحر، أو كلام كاهن أو شعر.

ثم التذكيرُ بدلائلِ قدرة الله ـ تعالى ـ في ما أتقن صنعه مُدْمَجاً في ذلك التذكيرُ بما في ذلك كله من نعمٍ على الناس.

وخلقُ الجن، وإثباتُ جزائهم.

والموعظةُ بالفناء، وتَخلّص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء، وختمت بتعظيم الله والثناء عليه.

وتخلل ذلك إدماجُ التنويهِ بشأن العدل، والأمرُ بتوفية أصحابِ الحقوق

حقوقَهم، وحاجةُ الناس إلى رحمةِ الله فيما خَلَق لهم، ومن أهمِّها نعمةُ العلم ونعمةُ البيان، وما أَعَّد من الجزاء للمجرمين، ومن الثواب والكرامة للمتقين، ووصفُ نعيم المتقين.

ومن بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه ﴿ الرَّحْمَن ﴾ وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدَّمْه غيره.

ومنه التعدادُ في مقام الامتنان، والتعظيم بقوله ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إذ تكرر فيها إحدى وثلاثين مرة، وذلك أسلوب عربي جليل كما سنبينه. ٢٢٩/٢٧

٣ـ **والبيان:** الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض، وهو النطق، وبه تميز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان؛ فهو من أعظم النعم.

وأما البيان من غير النطق من إشارة، وإيماء، ولمح النظر فهو ـأيضاًـ من مميزات الإنسان، وإن كان دون بيان النطق.

ومعنى تعليم الله الإنسان البيان: أنه خلق فيه الاستعداد لعلم ذلك، وألهمه وضعَ اللغة للتعارف، وقد تقدم عند قوله ـتعالىـ: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ في سورة البقرة.

وفي الإشارة إلى أن نعمةَ البيانِ أجلُّ النعمِ على الإنسانِ؛ فعدّ نعمة التكاليف الدينية، وفيه تنويه بالعلوم الزائدة في بيان الإنسان، وهي خصائص اللغة وآدابها. ٢٣٣/٢٧

٤ـ **والنجم:** يطلق اسم جمع على نجوم السماء قال ـتعالىـ: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ ويطلق مفرداً فيُجمع على نجوم، قال ـتعالىـ: ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾.

وعن مجاهد تفسيره هنا بنجوم السماء.

ويطلق النجم على النبات والحشيش الذي لا سُوق له فهو متصل بالتراب.

وعن ابن عباس تفسير **النجم** في هذه الآية بالنبات الذي لا ساق له، **والشجر**: النبات الذي له ساقٌ وارتفاعٌ عن وجه الأرض، وهذان ينتفع بهما الإنسان والحيوان.

فحصل من قوله: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ بعد قوله: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ قرينتان متوازيتان في الحركة والسكون، **وهذا من المحسنات البديعية الكاملة.** ٢٣٦/٢٧

٥ـ ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾.

والآلاء: النعم جمع: إلْي بكسر الهمزة وسكون اللام، وأَلْي بفتح الهمزة وسكون اللام وياء في آخره ويقال أَلْوُ بواو عوض الياء وهو النعمة.

وضمير المثنى في ﴿ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ خطاب لفريقين من المخاطبين بالقرآن.

والوجه عندي أنه خطاب للمؤمنين والكافرين الذين ينقسم إليهما جنس الإنسان المذكور في قوله: ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ وهم المخاطبون بقوله: ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ الآية.

والمنقسم إليهما الأنام المتقدم ذكره، أي أن نعم الله على الناس لا يجحدها كافر بَلْهَ المؤمن، وكل فريق يتوجه إليه الاستفهام بالمعنى الذي يناسب حاله.

والمقصود الأصلي: التعريض بالمشركين وتوبيخهم على أن أشركوا في العبادة مع المنعم غير المنعم، والشهادة عليهم بتوحيد المؤمنين، والتكذيب مستعمل في الجحود والإنكار.

وقيل: التثنية جرت على طريقة في الكلام العربي أن يخاطبوا الواحد بصيغة المثنى كقوله -تعالى-: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

ذكر ذلك الطبري والنسفي.

ويجوز أن تكون التثنية قائمة مقام تكرير اللفظ لتأكيد المعنى مثل: لبيك وسعديك، ومعنى هذا أن الخطاب لواحد وهو الإنسان.

وقال جمهور المفسرين: هو خطاب للإنس والجن، وهذا بعيد؛ لأن القرآن نزل لخطاب الناس، ووعظهم ولم يأت لخطاب الجن، فلا يتعرض القرآن لخطابهم، وما ورد في القرآن من وقوع اهتداء نفر من الجن بالقرآن في سورة الأحقاف وفي سورة الجن يحمل على أن الله كلّف الجن باتباع ما يتبين لهم في إدراكهم، وقد يُكلف الله أصنافاً بما هم أهل له دون غيرهم، كما كلف أهل العلم بالنظر في العقائد، وكما كلفهم بالاجتهاد في الفروع، ولم يكلف العامة بذلك؛ فما جاء في القرآن من ذكر الجن فهو في سياق الحكاية عن تصرفات الله فيهم وليس لتوجيه العمل بالشريعة.

وأما ما رواه الترمذي عن جابر بن عبدالله الأنصاري: «أن النبيﷺ خرج على أصحابه؛ فقرأ عليهم سورة الرحمن وهم ساكتون فقال لهم: «لقد قرأتُها على الجن ليلةَ الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾ قالوا: «لا بشيء مِنْ نِعَمِك ربنا نكذب؛ فلك الحمد»».

قال الترمذي: هو حديث غريب، وفي سنده زهير بن محمد، وقد ضعفه البخاري وأحمد بن حنبل.

وهذا الحديث لو صحَّ فليس تفسيراً لضمير التثنية؛ لأن الجنَّ سمعوا ذلك بعد نزوله؛ فلا يقتضي أنهم المخاطبون به وإنما كانوا مقتدين بالذين خاطبهم الله، وقيل: الخطاب للذكور والإناث وهو بعيد. ٢٧/٢٤٣-٢٤٤

٦- **وفائدة التكرير توكيد التقرير** بما لله -تعالى- من نعم على المخاطبين وتعريض بتوبيخهم على إشراكهم بالله أصناماً لا نعمة لها على أحد، وكلها دلائل على تفرد الإلهية.

وعن ابن قتيبة: «أن الله عدَّدَ في هذه السورة نعماء[1] وذكر خلقه آلاءه ثم أتبع كل خلة وصفها، ونعمة وضعها بهذه، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم، ويقررهم بها» اهـ.

وقال الحسين بن الفضل[2]: «التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة».

وقال الشريف المرتضى في مجالسه وآماله المسمى الدرر والغرر: وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم، قال مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً:

على أن ليس عدلا من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور

وذكر المصراع الأول ثمان مرات في أوائل أبيات متتابعة، وقال الحارث بن عباد:

قَرِّبَا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حبال

ثم كرر قوله: قرِّبا مربط النعامة مني، في أبيات كثيرة من القصيد.

وهكذا القول في نظائر قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ المذكور هنا إلى ما

---

١ - هكذا في الأصل، ولعل الصواب: نعماءَه. (م)

٢- الحسين بن الفضل بن عمير الجبلي الكوفي النيسابوري، توفي سنة ٢٨٢ وعمره مائة وأربع سنين، له تفسير القرآن.

في آخر السورة. ٢٧/٢٤٦-٢٤٧

٧- **والمرجان:** حيوان بحري ذو أصابع دقيقة ينشأ ليِّنا ثم يتحجر، ويتلوّن بلون الحمرة ويتصلب كلما طال مكثه في البحر، فيستخرج منه كالعروق تتخذ منه حلية، ويسمى بالفارسية (بسَذ).

وقد تتفاوت البحار في الجيد من مرجانها.

ويوجد ببحر طبرقة على البحر المتوسط في شمال البلاد التونسية.

والمرجان: لا يخرج من ملتقى البحرين: الملح والعذب، بل من البحر الملح.

وقيل: المرجان اسم لصغار الدر، واللؤلؤ كباره؛ فلا إشكال في قوله منهما. ٢٧/٢٥٠

٨- **والثقلان:** تثنية ثقل، وهذا المثنى اسم مفرد لمجموع الإنس والجن.

وأحسب أن الثقل هو الإنسان؛ لأنه محمول على الأرض، فهو كالثقل على الدابة، وأن إطلاق هذا المثنى على الإنس والجن من باب التغليب، وقيل غير هذا مما لا يرتضيه المتأمل.

وقد عد هذا اللفظ بهذا المعنى مما يستعمل إلا بصيغة التثنية؛ فلا يطلق على نوع الإنسان بانفراده اسم الثقل؛ ولذلك فهو مثنى اللفظ مفرد الإطلاق.

وأظن أن هذا اللفظ لم يطلق على مجموع النوعين قبل القرآن؛ فهو من أعلام الأجناس بالغلبة، ثم استعمله أهل الإسلام، قال ذو الرمة:

ومية أحسن الثقلين وجهاً وسالفة وأحسنه قذالا

أراد وأحسن الثقلين، وجعل الضمير له مفرداً، وقد أخطأ في استعماله؛ إذ لا علاقة للجن في شيء من غرضه. ٢٧/٢٥٧

٩ـ وقوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ تشبيه بليغ، أي كانت كوردة.

والوردة: واحدة الورد، وهو زهر أحمر من شجرة دقيقة ذات أغصان شائكة تظهر في فصل الربيع وهو مشهور.

ووجه الشبه قيل: هو شدة الحمرة، أي يتغير لون السماء المعروف أنه أزرق إلى البياض، فيصير لونها أحمر قال ـتعالىـ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾.

ويجوز عندي: أن يكون وجه الشبه كثرة الشقوق كأوراق الوردة. ٢٦١/٢٧

١٠ـ **وعبقري:** وصف لما كان فائقاً في صنفه عزيز الموجود، وهو نسبة إلى عبقر بفتح فسكون ففتح اسم بلاد الجن في معتقد العرب؛ فَنَسَبوا إليه كل ما تجاوز العادة في الإتقان والحسن، حتى كأنه ليس من الأصناف المعروفة في أرض البشر، قال زهير:

بِخَيْلٍ عليها جِنةٌ عبقرية جديرون يوماً أن ينالوا ويسْتَعْلُوا

فشاع ذلك؛ فصار العبقري وصفاً للفائق في صنفه كما قال النبيﷺ فيما حكاه من رؤيا القليب الذي استسقى منه: «**ثم أخذها (أي الذنوب) عمر فاستحالت غرباً؛ فلم أر عبقرياً يفري فَرِيَّه**».

وإلى هذا أشار المعري بقوله:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

فضربه القرآن مثلاً لما هو مألوف عند العرب في إطلاقه. ٢٧٥/٢٧

سورة الواقعة

١ـ سميت هذه السورة الواقعة بتسمية النبي ﷺ.

روى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: «**يا رسول الله قد شبت، قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**» وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وروى ابن وهب، والبيهقي عن عبدالله بن مسعود بسند ضعيف أنه سمع رسول الله يقول: «**من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً**».

وكذلك سميت في عصر الصحابة.

روى أحمد عن جابر بن سمرة قال: «كان رسول الله يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور».

وهكذا سميت في المصاحف وكتب السنة فلا يعرف لها اسم غير هذا.

وهي مكية قال ابن عطية: «بإجماع من يعتد به من المفسرين.

وقيل: فيها آيات مدنية، أي نزلت في السفر، وهذا كله غير ثابت» اهـ.

وقال القرطبي: عن قتادة وابن عباس استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ نزلت بالمدينة.

وقال الكلبي: إلا أربع آيات: اثنتان نزلتا في سفر النبي ﷺ إلى مكة وهما: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة وهما: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنها نزلت في غزوة تبوك.

وهي السورة السادسة والأربعون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء.

وقد عد أهل المدينة ومكة والشام آيها تسعاً وتسعين، وعدها أهل البصرة سبعاً وتسعين، وأهل الكوفة ستاً وتسعين.

وهذه السورة جامعة للتذكير قال مسروق: «من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة؛ فليقرأ سورة الواقعة» اهـ. ٢٧/٢٧٩ـ٢٨٠

٢ـ **أغراض هذه السورة**: التذكيرُ بيومِ القيامة، وتحقيقُ وقوعه.

ووصفُ ما يعرض لهذا[1] العالمِ الأَرضيِّ عند ساعة القيامة.

ثم صفةُ أهلِ الجنةِ وبعضِ نعيمهم.

وصفةُ أهل النار وما هم فيه من العذاب وأن ذلك لتكذيبهم بالبعث.

وإثباتُ الحشرِ والجزاءِ، والاستدلالُ على إمكان الخلق الثاني بما أبدعه الله من الموجودات بعد أن لم تكن.

والاستدلالُ بدلائل قدرة الله ـتعالىـ والاستدلالُ بنزع اللهِ الأرواحَ من الأجساد والناسُ كارهون لا يستطيع أحدٌ مَنْعَها من الخروج على أن الذي قَدِرَ على نزعها بدون مُدافعٍ قادرٌ على إرجاعها متى أراد أن يميتهم.

وتأكيدُ أن القرآن مُنَزَّل من عند الله، وأنه نعمةٌ أنعم الله بها عليهم، فلم يشكروها، وكذبوا بما فيه. ٢٧/٢٨٠

٣ـ ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي

---

١ ـ لعل ما أُثبت هو الصواب، وفي الأصل: وهذا. (م)

جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢)﴾.

وقد أفاد التفصيل أن الأصناف ثلاثة: صنف منهم أصحاب الميمنة، وهم الذين يجعلون في الجهة اليمنى في الجنة أو في المحشر.

واليمين جهة عناية وكرامة في العرف، واشتقت من اليمن، أي البركة.

وصنف أصحاب المشأمة، وهي اسم جهة مشتقة من الشؤم، وهو ضد اليمن فهو الضر وعدم النفع، وقد سميا في الآية الآتية أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فجعل الشمال ضد اليمين كما جُعل المشأمة هنا ضد الميمنة؛ إشعاراً بأن حالهم حال شؤم وسوء، وكل ذلك مستعار لما عرف في كلام العرب من إطلاق هذين اللفظين على هذا المعنى الكنائي الذي شاع حتى ساوى الصريح.

وأصله جاء من الزجر والعيافة[1] إذ كانوا يتوقعون حصول خير من أغراضهم من مرور الطير أو الوحش من يمين الزاجر إلى يساره، ويتوقعون الشر من مروره بعكس ذلك، وقد تقدم تفصيله عند قوله -تعالى-: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ﴾ في سورة الصافات، وتقدم شيء منه عند قوله -تعالى-: ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ في سورة الأعراف، وعند قوله -تعالى-: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ في سورة يس. ٢٧/٢٨٥-٢٨٦

٤- **والسدر**: شجر من شجر العِضاه ذو ورق عريض مدوَّر وهو صنفان: عُبْرِي بضم العين وسكون الموحدة وياء نسب نسبة إلى العِبْر بكسر العين وسكون الموحدة

---

١ - الزجر: المقصود به زجر الطير وتنفيرها.

والعيافة هي: زجر الطير، وتنفيرها، وإرسالها، والتفاؤل، أو التشاؤم بأسمائها، وأصواتها، وممراتها؛ فعن العيافة يكون الفأل، أو التشاؤم. (م)

على غير قياس وهو عبر النهي[1] أي ضفته، له شوك ضعيف في غصونه لا يضير.

والصنف الثاني الضَّالُ -بضاد ساقطة ولام مخففة- وهو ذو شوك.

وأجود السدر الذي ينبت على الماء وهو يشبه شجر العناب، وورقه كورق العناب، وورقه يجعل غسولاً ينظف به، يخرج مع الماء رغوة كالصابون.

وثمر هذا الصنف هو النبق -بفتح النون وكسر الموحدة وقاف- يشبه ثمر العناب إلا أنه أصفر مُزّ -بالزاي- يفوّح الفم، ويفوح الثياب، ويُتَفَكَّه به.

وأما الضال وهو السدر البري الذي لا ينبت على الماء فلا يصلح ورقه للغسول، وثمره عَفِصٌ لا يسوغ في الحلق، ولا ينتفع به، ويخبط الرعاة ورقه للراعية، وأجود ثمر السدر ثمر سدر هَجَر أشد نَبِقٍ حلاوةً، وأطيبه رائحة.

ولما كان السدر من شجر البادية، وكان محبوباً للعرب، ولم يكونوا مستطيعين أن يجعلوا منه في جناتهم وحوائطهم؛ لأنه لا يعيش إلا في البادية، فلا ينبت في جناتهم - خص بالذكر من بين شجر الجنة؛ إغراباً به وبمحاسنه التي كان محروماً منها من لا يسكن البوادي، وبوفرة ظله، وتهدُّل أغصانه، ونكهة ثمره.

ووصف بالمخضود، أي المُزال شوكُه، فقد كملت محاسنه بانتفاء ما فيه من أذىً. ٢٧/٢٩٨-٢٩٩

٥- **والطلح**: شجرٌ من شجر العِضَاه، واحدهُ طلحة، وهو من شجر الحجاز ينبت في بطون الأودية، شديدُ الطول، غليظ الساق، من أصلب شجر العِضاه عُوداً، وأغصانه طوال عظام شديدة الارتفاع في الجو، ولها شوك كثير قليلةُ الورق، شديدة الخضرة، كثيرةُ الظل من التفاف أغصانها، وصَمْغُها جيِّد،

---

١ - هكذا في الأصل، ولعل الصواب: عبر النهر. (م)

وشوكها أقل الشوك أذىً، ولها نَوْرٌ طيب الرائحة، وتسمى هذه الشجرة أم غيلان، وتسمى في صفاقس غيلان، وفي أحواز تونس تسمى مِسْكَ صَنادِق.

والمنضود: المتراص المتراكب بالأغصان ليست له سوق بارزة، أو المنضَّد بالحمل، أي النُوَّار فتكثر رائحته.

وعلى ظاهر هذا اللفظ يكون القول في البشارة لأصحاب اليمين بالطلح على نحو ما قرر في قوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ ويعتاض عن نعمة نكهة ثمر السدر بنعمة عَرْف نَوْر الطلح.

وفسر الطلح بشجر الموز روي ذلك عن ابن عباس وابن كثير، ونسب إلى علي بن أبي طالب.

والامتنان به على هذا التفسير امتنان بثمره؛ لأنه ثمر طيب لذيذ، ولشجره من حسن المنظر، ولم يكن شائعاً في بلاد العرب لاحتياجه إلى كثرة الماء. ٢٩٩/٢٧

٦ـ **والعُرُب:** جمع عَروب بفتح العين، ويقال: عَرِبه بفتح فكسر، فيجمع على عَرِبات كذلك، وهو اسم خاص بالمرأة.

وقد اختلفت أقوال أهل اللغة في تفسيره.

وأحسن ما يجمعهما أن العَروب: المرأة المتحببة إلى الرجل، أو التي لها كيفية المتحببة، وإن لم تقصد التحبب، بأن تكثر الضحك بمرأى الرجل، أو المزاح أو اللهو، أو الخضوع في القول، أو اللثغ في الكلام بدون علة، أو التغزل في الرجل، أو المساهلة في مجالسته، والتدلل، وإظهار معاكسة أميال الرجل، لعِباً لا جِدّاً، وإظهار أذاه كذلك كالمغاضبة من غير غضب، بل للتورك على الرجل. ٣٠١/٢٧

٧ـ **ويقال للعروب بلغة أهل مكة**: العَرِبة والشَّكِلَةُ.

ويقال لها بلغة أهل المدينة: الغَنِجَة.

وبلغة العراق: الشّكِلة، أي ذات الشَّكَل بفتح الكاف وهو الدلال والتعرُّبُ. ٣٠٢/٢٧

٨ـ **والحميم**: الماء الشديد الحرارة.

واليحموم: الدخان الأسود على وزن يفعول مشتق من الحُمَم بوزن صُرَد اسم للفحم.

والحُممة: الفحمة، فجاءت زنة يفعول فيه اسماً ملحوظاً فيه هذا الاشتقاق وليس ينقاس. ٣٠٤/٢٧

سورة الحديد

١ ـ **هذه السورة تسمى من عهد الصحابة (سورة الحديد)** فقد وقع في حديث إسلام عمر بن الخطاب عند الطبراني، والبزار أن عمر دخل على أخته قبل أن يسلم فإذا صحيفة فيها أول سورة الحديد، فقرأه حتى بلغ: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فأسلم.

وكذلك سميت في المصاحف وفي كتب السنة؛ لوقوع لفظ (الْحَدِيدَ) فيها في قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾.

وهذا اللفظ وإن ذُكر في سورة الكهف في قوله ـتعالى ـ: ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار، فلم تسم به؛ لأنها سميت باسم الكهف؛ للاعتناء بقصة أهل الكهف، ولأن الحديد الذي ذكر هنا مراد به حديدُ السلاح من سيوف ودروع وخُوذ؛ تنويهاً به إذ؛ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته، وإلهام الناس صنعه؛ لتحصل به منافع؛ لتأييد الدين، ودفاع المعتدين كما قال ـتعالى ـ: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾.

وفي كون هذه السورة مدنية أو مكية اختلاف قوي لم يختلَف مثله في غيرها، فقال الجمهور: مدنية.

وحكى ابن عطية عن النقاش: أن ذلك إجماع المفسرين، وقد قيل: إن صدرها مكي لما رواه مسلم في صحيحه والنسائي وابن ماجه عن عبدالله ابن مسعود أنه قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ

لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إلا أربع سنين.

عبدالله بن مسعود من أول الناس إسلاماً؛ فتكون هذه الآية مكية.

وهذا يعارضه ما رواه ابن مردويه عن أنس وابن عباس: أن نزول هذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة من ابتداء نزول القرآن؛ فيصار إلى الجمع بين الروايتين أو الترجيح، ورواية مسلم وغيره عن ابن مسعود أصح سنداً، وكلام ابن مسعود يرجّح على ما رُوي عن أنس وابن عباس؛ لأنه أقدم إسلاماً، وأعلم بنزول القرآن، وقد علمتَ آنفاً أن صدر هذه السورة كان مقروءاً قبل إسلام عمر بن الخطاب.

قال ابن عطية: «يشبه صدرها أن يكون مكياً والله أعلم، ولا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً». اهـ

وروي أن نزولها كان يوم ثلاثاء؛ استناداً إلى حديث ضعيف رواه الطبراني عن ابن عمر ورواه الديلمي عن جابر بن عبدالله.

وأقول: الذي يظهر أن صدرها مكي كما توسمه ابن عطية، وأن ذلك ينتهي إلى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وأن ما بعد ذلك بعضه نزل بالمدينة -كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين- وبعضه نزل بمكة مثل آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآيةَ، كما في حديث مسلم.

ويشبه أن يكون آخر السورة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ نزل بالمدينة ألحق بهذه السورة بتوقيف من النبيﷺ في خلالها أو في آخرها.

قلت: وفيها آية: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ الآية،

وسواء كان المراد بالفتح في تلك الآية فتح مكة أو فتح الحديبية فإنه أطلق عليه اسم الفتح وبه سميت (سورة الفتح) فهي متعينة؛ لأن تكون مدنية؛ فلا ينبغي الاختلاف في أن معظم السورة مدني.

وروي أن نزولها كان يوم الثلاثاء استناداً إلى حديث ضعيف رواه الطبراني عن ابن عمر ورواه الديلمي عن جابر بن عبدالله.

وقد عدت السورة الخامسة والتسعين في ترتيب نزول السور؛ جرياً على قول الجمهور: إنها مدنية فقالوا: نزلت بعد سورة الزلزال، وقبل سورة القتال، وإذا روعي قول ابن مسعود: إنها نزلت بعد البعثة بأربع سنين، وما روي من أن سبب إسلام عمر بن الخطاب أنه قرأ صحيفة لأخته فاطمة فيها صدر سورة الحديد ـ لم يستقم هذا العد؛ لأن العبرة بمكان نزول صدر السورة لا نزول آخرها، فيشكل موضعها في عد نزول السورة.

وعلى قول ابن مسعود يكون ابتداء نزولها آخر سنة أربع من البعثة، فتكون من أقدم السور نزولاً، فتكون نزلت قبل سورة الحجر وطه، وبعد غافر؛ فالوجه أن معظم آياتها نزل بعد سورة الزلزال.

وعدت آيها في عد أهل المدينة ومكة والشام ثماناً وعشرين، وفي عد أهل البصرة والكوفة تسعاً وعشرين.

وورد في فضلها مع غيرها من السور المفتتحة بالتسبيح ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن العرباض بن سارية: «أن النبي ﷺ كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ويقول: «**إن فيهن آيةً أفضل من ألف آية**».

وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وظن ابن كثير أن الآية المشار إليها في حديث العرباض هي قوله ـتعالىـ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لما ورد في الآثار من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها. ٢٧/٣٥٣ـ٣٥٥

٢ـ **أغراضها**: الأغراضُ التي اشتملت عليها هذه السورة: التذكيرُ بجلال الله ـتعالىـ وصفاتِه العظيمة، وسعةِ قدرته وملكوته، وعمومِ تصرفه، ووجوبِ وجوده، وسعةِ علمه، والأمرُ بالإيمان بوجوده، وبما جاء به رسولهﷺ، وما أنزل عليه من الآيات البينات.

والتنبيهُ لما في القرآن من الهُدى وسبيلِ النجاة، والتذكيرُ برحمة الله ورأفته بخلقه.

والتحريضُ على الإنفاق في سبيل الله، وأن المالَ عرضٌ زائل لا يبقى منه لصاحبه إلا ثوابُ ما أنفق منه في مرضاة الله.

والتخلصُ إلى ما أعدَّ اللهُ للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من خير، وضِدِّ ذلك للمنافقين والمنافقات.

وتحذيرُ المسلمين من الوقوع في مهواة قساوة القلوب التي وقع فيها أهلُ الكتابِ مِنْ قَبْلِهم من إهمالِ ما جاءهم مِنَ الهدى حتى قست قلوبُهم وجرَّ ذلك إلى الفسوق كثيراً منهم.

والتذكيرُ بالبعث، والدعوةِ إلى قلة الاكتراث بالحياة الفانية، والأمرُ بالصبر على النوائب، والتنويهُ بحكمة إرسال الرسلِ والكتبِ؛ لإقامة أمور الناس على العدل العام.

والإيماءُ إلى فضل الجهاد في سبيل الله.

وتنظيرُ رسالةِ محمدﷺ برسالة نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ على أن في

ذريتهما مهتدين وفاسقين، وأن الله أَتْبَعَهُما برسلٍ آخرين منهم عيسى ـ عليه السلام ـ الذي كان آخرَ رسولٍ أُرْسِلَ بشرع قبل الإسلام، وأن أتباعَه كانوا على سُنَّةِ مَنْ سبقهم: منهم مؤمن، ومنهم كافر.

ثم أهاب بالمسلمين أن يُخْلِصوا الإيمانَ؛ تعريضاً بالمنافقين، وَوَعَدَهم بحسن العاقبة، وأن الله فضَّلهم على الأمم؛ لأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء. ٢٧/٣٥٥ـ٣٥٦

٣ـ ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) ﴾.

استئناف ثالث انْتُقِل به الخطاب إلى المؤمنين؛ فهذه الآية يظهر أنها مبدأُ الآيات المدنية في هذه السورة، ويزيد ذلك وضوحاً عطف قوله: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآيات ـكما سيأتي قريباًـ.

والخطاب هنا وإن كان صالحاً لتقرير ما أفادته جملة: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾.

ولكن أسلوب النظم وما عطف على هذه الجملة يقتضيان أن تكون استئنافاً انتقالياً هو من حسن التخلص إلى خطاب المسلمين، ولا تفوته الدلالة على تقرير ما قبله؛ لأن التقرير يحصل من انتساب المعنيين: معنى الجملة السابقة، ومعنى هذه الجملة الموالية.

فهذه الجملة بموقعها ومعناها وعلتها وما عُطف عليها أفادت بياناً، وتأكيداً، وتعليلاً، وتذييلاً، وتخلصاً لغرض جديد، وهي أغراض جمعتها جمعاً بلغ حد الإعجاز في الإيجاز، مع أن كل جملة منها مستقلة بمعنى عظيم من الاستدلال

والتذكير والإرشاد والامتنان. ٣٧١/٢٧

٤ـ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)﴾.

قد علم من صدر تفسير هذه السورة أن هذه الآية نزلت بمكة سنة أربع أو خمس من البعثة.

رواه مسلم وغيره عن عبدالله بن مسعود أنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إلا أربع سنين.

والمقصود من ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: إما بعض منهم ربما كانوا مقصرين عن جمهور المؤمنين يومئذ بمكة؛ فأراد الله إيقاظ قلوبهم بهذا الكلام المجمل على عادة القرآن وأقوال الرسول ﷺ في التعريض مثل قوله: «**ما بال أقوام يفعلون كذا**» وقوله ـتعالىـ: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

وليس ما قاله ابن مسعود مقتضياً أن مثله من أولئك الذين ذكرهم الله بهذه الآية، ولكنه يخشى أن يكون منهم؛ حذراً، وحيطة.

فالمراد بـ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المؤمنون حقاً لا من يظهرون الإيمان من المنافقين؛ إذ لم يكن في المسلمين بمكة منافقون، ولا كان داعٍ إلى نفاق بعضهم.

وعن ابن مسعود: «لما نزلت جعل بعضنا ينظر إلى بعض ونقول: ما أحدثنا».

وإما أن يكون تحريضاً للمؤمنين على مراقبة ذلك والحذر من التقصير. ٣٨٩/٢٧ـ٣٩٠

٥ـ والمقصود التحذير لا أنهم تلبسوا بذلك، ولم يأن لهم الإقلاع عنه.

والتحذير مُنْصَبٌّ إلى ما حدث لأهل الكتاب من قسوة القلوب بعد طول الأمد عليهم في مزاولة دينهم، أي فليحذر الذين آمنوا من أن يكونوا مثلهم على حدثان عهدهم بالدين.

وليس المقصود عذر الذين أوتوا الكتاب بطول الأمد عليهم؛ لأن طول الأمد لا يكون سبباً في التفريط فيما طال فيه الأمد، بل الأمر بالعكس، ولا قصد تهوين حصوله للذين آمنوا بعد أن يطول الأمد؛ لأن ذلك لا يتعلق به الغرض قبل طول الأمد.

وإنما المقصود النهي عن التشبه بالذين أوتوا الكتاب في عدم خشوع قلوبهم.

ولكنه يفيد تحذير المؤمنين بعد أن يطول الزمان من أن يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب.

ويستتبع ذلك الأنباء بأن مدة المسلمين تطول قريباً أو أكثر من مدة أهل الكتاب الذين كانوا قبل البعثة؛ فإن القرآن موعظة للعصور والأجيال.

ويجوز أن تجعل (لا) حرف نهي وتعلق النهي بالغائب التفاتاً أو المراد: أَبْلِغْهم أن لا يكونوا. ٢٧/٣٩١ـ٣٩٢

٦ـ **والمعنى**: أنهم نَسُوا ما أوصوا به، فخالفوا أحكام شرائعهم، ولم يخافوا عقاب الله؛ يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون سيغفر لنا، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً، وصار ديدناً لهم رويداً رويداً حتى ضَرِئوا بذلك؛ فقست قلوبهم، أي تمردت على الاجتراء على تغيير أحكام الدين. ٢٧/٣٩٢

٧ـ ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ (١٧)﴾.

افتتاح الكلام بـ(اعلموا) ونحوه يؤذن بأن ما سُيْلَقى جديرٌ بتوجه الذهن بشراشره إليه، كما تقدم عند قوله -تعالى-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ في سورة البقرة، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية في سورة الانفال.

وهو هنا يشير إلى أن الكلام الذي بُعده مغزى عظيم غير ظاهر، وذلك أنه أريد به تمثيل حال احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله بحال الأرض الميتة في الحاجة إلى المطر، وحال الذكر في تزكية النفوس واستنارتها بحال الغيث في إحياء الأرض الجدبة.

ودل على ذلك قوله بعده: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وإلا فإن إحياء الله الأرض بعد موتها بما يصيبها من المطر لا خفاء فيها؛ فلا يقتضي أن يفتتح الإخبار عنه بمثل: ﴿اعْلَمُوا﴾ إلا لأن فيه دلالةً غيرَ مألوفةٍ وهي دلالة التمثيل، ونظيره قول النبي ﷺ لأبي مسعود البدري وقد رآه لطم وجه عبدٍ له: «**اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا**».

فالجملة بمنزلة التعليل لجملة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لما تتضمنه تلك من التحريض على الخشوع لذكر الله، ولكن هذه بمنزلة العلة فصلت ولم تعطف، وهذا يقتضي أن تكون مما نزل مع قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية.

والخطاب في قوله: ﴿اعْلَمُوا﴾ للمؤمنين على طريقة الالتفات؛ إقبالاً عليهم للاهتمام.

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استعارة تمثيلية مصرحة، ويتضمن تمثيلية مَكْنية بسبب تضمنه تشبيه حالِ ذكر الله والقرآن في إصلاح القلوب بحال المطر في إصلاحه الأرض بعد جدبها.

وطُوي ذكر الحالةِ المشبهِ بها، ورُمز إليها بلازمها وهو إسناد إحياء الأرض إلى الله؛ لأن الله يحيى الأرض بعد موتها بسبب المطر كما قال -تعالى-: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾[1].

والمقصود الإرشاد إلى وسيلة الإنابة إلى الله، والحث على تعهد النفس بالموعظة، والتذكير بالإقبال على القرآن وتدبره، وكلام الرسولﷺ وتعليمه، وأن في اللجأ إلى كتاب الله وسنة رسولهﷺ نجاةً، وفي المفزع إليهما عصمة، وقد قال النبيﷺ: «**تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي**».

وقال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً؛ فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع لذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**». ٢٧/٣٩٣-٣٩٤

٨- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾.

١- لعله يشير إلى الآية: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (النحل: ٦٥). (م)

أعقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح أنه الحرص على استبقاء المال؛ لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا، فضُرب لهم مثلُ الحياة الدنيا بحالٍ محقَّرةٍ على أنها زائلةٌ تحقيراً لحاصلها، وتزهيداً فيها؛ لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح قال -تعالى-: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقال: ﴿وَأُحْضِرَتْ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾.

كل ذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجب وغيره، وأشير إلى أنها ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة، ووقاية من العذاب الشديد.

وما عدا ذلك من أحوال الحياة فهو متاع قليل، ولذلك أعقب مثل الحياة الدنيا بالإخبار عن الآخرة بقوله: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ﴾ الخ. ٢٧/٤٠٠-٤٠١

٩- وقد ذكر هنا من شؤون الحياة ما هو الغالب على الناس وما لا يخلو من مقارفة تضييع الغايات الشريفة أو اقتحام مساوٍ ذميمة، وهي أصول أحوال المجتمع في الحياة.

وهي -أيضاً- أصول أطوار آحاد الناس في تطور كل واحد منهم؛ فإن اللعب طور سِنّ الطفولة والصبا، واللهوَ طور الشباب، والزينة طور الفتوة، والتفاخرَ طور الكهولة، والتكاثر طور الشيخوخة، وذكر هنا خمسة أشياء:

فاللعب: اسم لقول أو فعل يراد به المزاح والهزل؛ لتمضية الوقت، أو إزالة وحشة الوحدة، أو السكون، أو السكوت، أو لجلب فرح ومسرة للنفس، أو يجلب مثل ذلك للحبيب، أو يجلب ضده للبغيض، كإعمال الأعضاء وتحريكها؛ دفعاً لوحشة السكون، والهذيان المقصود لدفع وحشة السكوت، ومنه العبث،

وكالمزاح مع المرأة لاجتلاب إقبالها ومع الطفل، تحبباً أو إرضاءً له.

واللعب: هو الغالب على أعمال الأطفال والصبيان؛ فطور الطفولة طور اللعب ويتفاوت غيرهم في الإتيان منه؛ فيقل ويكثر بحسب تفاوت الناس في الأطوار الأولى من الإنسان، وفي رجاحة العقول، وضعفها.

والإفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذن بخسة العقل، ولذلك قال قوم إبراهيم له: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللاَّعِبِينَ﴾.

واللعب يكثر في أحوال الناس في الدنيا؛ فهو جزء عظيم من أحوالها، وحسبك أنه يَعمُر معظم أحوال الصبا.

واللهو: اسم لفعل أو قول يقصد منه التذاذ النفس به، وصرفها عن ألم حاصل من تعب الجسد أو الحزن أو الكمد، يقال: لها عن الشيء، أي تشاغل عنه، قال امرؤ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خِباؤها ... تمتعتُ من لَهْو بها غيرَ معجَل

وقال النابغة يذكر حجه:

حيَّاكِ ربي فإنا لا يحل لنا ... لَهْوُ النساء وإن الدِّين قد عَزمَا

ويغلب اللهو على أحوال الشباب، فطور الشباب طوره، ويكثر اللهو في أحوال الدنيا من تطلب اللذات والطرب.

والزينة: تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مُسراً له، وفي طباع الناس الرغبة في أن تكون مناظرهم حسنة في عين ناظريهم وذلك في طباع النساء أشد، وربما كان من أسباب شدته فيهن كثرة إغراء الرجال لهن بذلك.

ويكثر التزين في طور الفتوة؛ لأن الرجل يشعر بابتداء زوال محاسن شبابه،

والمرأة التي كانت غانية تحب أن تكون حالية، وليس ذلك لأجل تعرضها للرجال ـ كما يتوهمه الرجال فيهن غروراً بأنفسهم ـ بل ذلك لتكون حسنة في الناس من الرجال والنساء.

ويغلب التزين على أحوال الحياة؛ فإن معظم المساكن والملابس يراد منه الزينة، وهي ذاتية ومعنوية، ومن المعنوية ما يسمى في أصول الفقه بالتحسيني.

والتفاخر: الكلام الذي يفخر به، والفخر: حديث المرء عن محامده والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل.

وصيغ منه زِنَة التفاعل؛ لأن شأن الفخر أن يقع بين جانبين كما أنبأ به تقييده بظرف **(بينكم)**.

والناس يتفاخرون بالصفات المحمودة في عصورهم وأجيالهم وعاداتهم؛ فمن الصفات ما الفخر به غير باطل.

وهو الصفات التي حقائقها محمودة في العقل أو الشرع.

ومنها ما الفخر به باطل من الصفات والأعمال التي اصطلح قوم على التمدح بها، وليست حقيقة بالمدح مثل التفاخر بالإغلاء في ثمن الخمور، وفي الميسر، والزنى، والفخر بقتل النفوس، والغارة على الأموال في غير حق.

وأغلب التفاخر في طور الكهولة واكتمال الأَشُدَّ؛ لأنه زمن الإقبال على الأفعال التي يقصد منها الفخر.

والتفاخر كثير في أحوال الناس في الدنيا، ومنه التباهي والعُجب، وعنه ينشأ الحسد.

والتكاثر: تفاعل من الكثرة، وصيغة التفاعل هنا للمبالغة في الفعل بحيث

ينزل منزلة من يغالب غيره في كثرة شيء؛ فإنه يكون أحرص على أن يكون الأكثر منه عنده؛ فكان المرء ينظر في الكثرة من الأمر المحبوب إلى امرىء آخر له الكثرة منه، ألا ترى إلى قول طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم[1] ... ولو شاء ربي كنت عمرو بنَ مرثدِ

فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي ... بنونَ كرامٌ سادة لمسوَّد

ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر؛ فصارت تستعمل في الحرص على تحصيل الكثير من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه، قال -تعالى-: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾. ٢٧/٤٠١-٤٠٣

١٠- **والمعنى: أن الله أقام نظام أحوال الناس في الحياة الدنيا على حكمة أن تكون الحياة وسيلة لبلوغ النفوس** إلى ما هيَّأها الله له من العروج إلى سمو المَلَكيَّة كما دل عليه قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فكان نظام هذه الحياة على أن تجري أمور الناس فيها على حسب تعاليم الهدى؛ للفوز بالحياة الأبدية في النعيم الحق بعد الممات والبعث؛ فإذا الناس قد حرفوها عن مهيعها، وقد تضمن ذلك قوله -تعالى-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ٢٧/٤٠٣-٤٠٤

١١- ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾.

فضرب مثل الحياة الدنيا لأطوار ما فيها من شباب وكهولة وهرم ففناء، ومن جِدَّةٍ وتبذّل وبِلىً، ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها ثم إدبارها بعد ذلك،

---

١ - هكذا في الأصل، وفي ديوان طرفة: قيس بن خالد. (م)

بأطوار الزرع، وكلها أعراض زائلة وآخرها فناء.

وتندرج فيها أطوار المرء في الحياة المذكورة في قوله: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى: ﴿وَالأَوْلادِ﴾ كما يظهر بالتأمل. ٢٧/٤٠٦-٤٠٧

١٢- ويفهم من هذا أن ما كان من أحوال الحياة مقصوداً لوجه الله فإنه من شؤون الآخرة؛ فلا يدخل تحت هذا التمثيل إلا ظاهراً.

فأعمال البِر ودراسة العلم ونحو ذلك لا يعتريها نقص ما دام صاحبها مقبلاً عليها، وبعضها يزداد نماءً بطول المدة، وتقدم نظير هذه الآية في سورة الزمر. ٢٧/٤٠٦

١٣- ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)﴾.

وعبر عن العناية والاهتمام بفعل المسابقة؛ لإلهاب النفوس بصرف العناية بأقصى ما يمكن من الفضائل كفعل من يسابق غيره إلى غاية فهو يحرص على أن يكون المجلِّيَّ، ولأن المسابقة كنايةٌ عن المنافسة، أي واتركوا المقتصرين على متاع الحياة الدنيا في الأخريات والخوالف. ٢٧/٤٠٧

١٤- ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾.

وهذا الكلام يجمع الإشارة إلى ما قدمناه من أن الله -تعالى- وضع نظام هذا العالم على أن تترتب المسببات على أسبابها، وقدر ذلك وعلمه، وهذا مثل قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ ونحو ذلك. ٢٧/٤١١

١٥ـ ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾.

والمقصود من هذا لفت بصائر السامعين إلى الاعتبار بحكمة الله ـتعالى ـ من خلق الحديد وإلهام صنعه، والتنبيه على أن ما فيه من نفع وبأس إنما أريد به أن يوضع بأسه حيث يستحق، ويوضع نفعه حيث يليق به، لا لتجعل منافعه لمن لا يستحقها مثل قطّاع الطريق والثوار على أهل العدل، ولتجهيز الجيوش؛ لحماية الأوطان من أهل العدوان، وللادخار في البيوت؛ لدفع الضاريات والعاديات على الحُرم والأموال.

وكان الحكيم (انتيثنوس) اليوناني تلميذ سقراط إذا رأى امرأة حالية متزينة في أثينا يذهب إلى بيت زوجها ويسأله أن يريه فرسه وسلاحه، فإذا رآهما كاملين أذن لامرأته أن تتزين؛ لأن زوجها قادر على حمايتها من داعر يغتصبها، وإلا أمرها بترك الزينة وترك الحلي.

وهذا من باب سد الذريعة، لا ليجعل بأسه لإخضاد شوكة العدل وإرغام الآمرين بالمعروف على السكوت؛ فإن ذلك تحريف لما أراد الله من وضع الأشياء النافعة والقارة، قال ـتعالى ـ: ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾.

وقال على لسان أحد رسله ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾. ٤١٧/٢٧

١٦ـ **والرهبانية:** اسم للحالة التي يكون الراهب متصفاً بها في غالب شؤون دينه، فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس؛ لأن قياس النسب إلى الراهب الراهبية، والنون فيها مزيدة للمبالغة في النسبة كما زيدت في قولهم: شَعْراني، لكثير الشعر، ولحياني لعظيم اللحية، وروحاني، ونصراني. ٤٢١/٢٧

١٧ـ **فالراهب يمتنع من التزوج؛ خيفة أن تشغله زوجه عن عبادته**، ويمتنع

من مخالطة الأصحاب؛ خشية أن يلهو عن العبادة، ويترك لذائذ المآكل والملابس؛ خشية أن يقع في اكتساب المال الحرام، وأنهم أرادوا التشبه بعيسى -عليه السلام- في الزهد في الدنيا وترك التزوج، فلذلك قال الله -تعالى-: ﴿ ابْتَدَعُوهَا ﴾ أي أحدثوها؛ فإن الابتداعَ الإتيانُ بالبدعة والبِدَعِ، وهو ما لم يكن معروفاً، أي أحدثوها بعد رسولهم؛ فإن **البدعة ما كان محدثاً بعد صاحب الشريعة.** ٤٢٢/٢٧